جهاد ضد ماك ورلد
العولمة والأصولية ضد الديموقراطية

ترجمه إلى الفرنسية ميشال لافوا
باريس، أشاث، 2001.
عرض د. عبد الحميد الصنهاجي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الأول- وجدة- المغرب

إنهـــا فكرة مستفزة وشاردة ارتقت إلى أطروحة جديرة بالفحص والتأمل[1]، صدرت لأول مرة عام 1995، وترجمت إلى عشرات اللغات[2]، باستثناء اللغة العربية، وقفزت بها أحداث 11 شتنبر 2001، التي عصفت بمركز التجارة العالمي بنيويورك، إلى دائرة الضوء لتتربع على قائمة الكتب الأكثر رواجا.

"جهاد ضد ماك ورلد" عنوان أبصرت سطوره تنامي صخب الفوضى العالمية بعـــد انهيار الإمبراطورية السوفياتية وانقشاع غبار حائط برلين، وأنذرت، ليس بنهاية الـــتاريخ، وإنما بتصادم بابل وديزني لاند أو الأصولية والعولمة، لتهب أمريكا سنوات

---

[1] وقد نشر هذا الموضوع لأول مرة عام 1992 في مجلة
Benjamin Barber," Jihad versus Mc World ". *The Atlantic Monthly*, 1992. 269. 53/56.

[2] واعتمدنا في الترجمة الفرنسية على:
Benjamin Barber, *Djihad versus Mc World. Mondialisation et intégrisme contre la démocratie*. Traduit de l'anglais par Michel Valois, Paris, Hachette, 2001, p. 300.

قليلة بعد ذلك، مذعورة مدحورة، تقلب أوراقها وتسأل خبراءها في التاريخ والسياسة وعلم الاجتماع والاستراتيجيا عن تفسير ما حدث. "مستشار الأمير"[1] بنجمان باربر كان يملك تلابيب بعض الأجوبة.

وبنجمان باربر من الشخصيات الوازنة في الحقل السياسي والثقافي الأمريكي، ملأ الطموح جوانبه وهزه الحماس للبذل والعطاء في أكثر من ميدان. جمع بين التعليم والمسرح والأدب والسياسة، فملك ناصية الكلمة وأنتج ما لا يقل عن سبعة عشر مؤلفا وقصة والعديد من النصوص المسرحية، وهو في ذلك يقول: كل ما أقوم به كأستاذ جامعي أو شخصية سياسية أو كاتب هو استغلال قدرتي على الكلام والكتابة والإقناع.

ولكن الكلمات تذروها الرياح، لذا بحث باربر عن لغة جديدة وفلسفة سياسية جديدة[2] تتماشى مع عالم متداخل على المستوى البيئي والتقني والاقتصادي؛ عالم اغتصبه ماك ورلد فسحب السيادة من الدولة/الأمة وأودعها في أحضان الشركات الدولية (الفصل الأول)، وبات جهاد يهدده بما تخشاه الأسواق ... الهوية والحدود (الفصل الثاني). ويفصل باربر آيات جهاد في ديمقراطيات ماك ورلد بأوربا وأمريكا وروسيا، فيسلط الضوء على قوة ومسار الديمقراطيات المحلية في إقليم كاطالونيا بإسبانيا وسويسرا الألمانية، بل وحتى في إقليم الكيبك بكندا.

جهاد/ماك ورلد، بابل/ديزني لاند، العرق/الروح أقطاب متضادة تتجاذب وتتغذى من بعضها البعض وتتحالف فيما بينها ضد عدو مشترك: الديمقراطية. وينبري تمايز جهاد وماك ورلد وتداخلهما، حسب باربر، في العديد من الصور. فاليهود الأورتودكس يستعملون الأنترنيت، والنازيون الجدد يوظفون موسيقى الروك لتمرير خطابهم، والإيرانيون ينصتون بأذن إلى خطابات آيات الله تناديهم إلى الجهاد،

---

1 Serge Halimi, "conseiller du Prince", *Le Monde Diplomatique*, Aout 2002.

2 " Benjamin Barber est d'abord l'homme qui popularisa l'idée paradoxale et brillante que, conduite par les entreprises multinationales, la "mondialisation" économique et culturelle (Mc World) risquait de provoquer un retour de bâton identitaire et integriste (Jihad)" . In *Le Monde Diplomatique*, Aout 2002.

ويـــتابعون بأذن أخرى مسلسلات "دينامتي" و"لي سامبسون" مباشرة على القنوات الفضائية.

إن الديموقراطية وحدها، يقرر السياسي الأمريكي، من يقدر على خلق مجتمع مدني وتسمو به إلى مستوى الأمة.

إن الصـــراع من أجل الديمقراطية هو الموضوع الأساس في هذا المؤلف. وما يشـــغل الكاتـــب، كما يقول، ليست الرأسمالية وإنما المجتمع المدني وما يتعرض له من تأثيرات؛ وليس الدين أو التنطعات الإثنية وإنما المواطنة والطريقة التي يهد بها التطرف أساسها[1].

جهـــاد... مصـــطلح خفيف على اللسان ثقيل في الميزان، يعترف باربر أن اســـتعماله تم بصـــورة مجازيـــة، للدلالة على خاصية دوغمائية وعنيفة قد نجدها عند المسيحيين أو الهندوس، وقد نجدها أيضا عند بعض المسلمين، بل عند كل المتشددين. فجهاد إشارة للصراع ضد الحاضر وليس ضد الماضي.

في جهاد إثارة للأحقاد المحلية ... وإعادة إنتاج الحدود القديمة وتهديد بالبلقنة إلى دول/أمـــم تنتصـــب فيها الثقافة ضد الثقافة، والشعب ضد الشعب، والقبيلة ضد القبيلة. يعني حرب ضد القيم والثقافة والمؤسسات المكونة للمجتمع الليبرالي، يكون فيه الفرد تحت رحمة جهاد عام وشامل قام ويقوم باسم آلاف المعتقدات الواهية والضيقة، وضد كل أنواع التعاون والاعتماد المتبادل، وضد التكنولوجيا والحداثة بصفة عامة.

أمـــا في ماك ورلد فإلغاء للحدود الوطنية وإحياء للأسواق العالمية تؤول فيها الســـلطة لقـــوى اقتصادية وتكنولوجية وبيئية تفرض ضرورة الاندماج والانخراط في أســـواق الإســـتهلاك. تعلـــق الأمر بالموسيقى أو الحواسيب أو المطاعم أو القنوات

---

[1] وفي تصريح لجريدة " لا بريس " الكندية بتاريخ 11 ماي 2004، كتب باربر يقول:

"Malheureusement, les gouvernements américains ont tendance à confondre la démocratie avec la libéralisation économique (...). Pour les américains, démocratisation est très synonyme d'américanisation et de privatisation de l'économie".Elias Levy: " Benjamin Barber, pour en finir avec l'empire de la peur". *La Presse*, 11/05/2004.

الفضـــائية؛ قوى تجمع كل الشعوب في بوتقة موضوعاتية عالمية موحدة، تقرب فيما بينها المبادلات التجارية وتكنولوجيا الإعلام والتواصل ونمط من الحياة قائم على المرح والترفـــيه، تكـــون فيه الانجليزية لغة وحيدة والدولار عملة أوحد. إذ على دقاته في البورصات العالمية تعيش الشركات الدولية والمنظمات التجارية. إذا عانى الأمريين ذاقت وبال أمرها، وإذا انتعش تنفست الصعداء.

والديناميكية الاقتصادية والتجارية موضوع أساسي في هذا الكتاب. إذ لا يخلو فصل من مناقشة أحد أبرز مظاهرها. يبدأ في الفصل الأول بالكشف عن قوة الأسياد الجـــدد في العـــالم من مختصين في الإعلام والتواصل، أولائك الذين يبدعون ويملكون ويراقـــبون شكل ومضمون حضارتنا من كتب ومجلات وأغان وجرائد وبرامج تلفزية وأفلام وشرائط وإشهارات. ويختم الحديث في الفصل الثالث عن انعكاسات الليبرالية الاقتصـــادية في روســـيا وفشل التحول الديمقراطي نتيجة الخيبة التي ترتبت عن الخلط الذي خلقه الغرب بين الأسواق والحرية.

لكن كيف يمكن أن نعالج هذه العلاقة الجدلية بين جهاد وماك ورلد، يتساءل بنجمان باربر؟ أو كيف نصلح بالأحرى بين ما يبدو من جهة أنه نهاية سيادة الدول[1] في عالم توحده القيم ذاتها، ومن جهة أخرى ترميم بيت هذا العالم المبعثر الذي أصبح يعيش على صراعات الماضي ونكباته؟

الحقيقة/المفارقة، بجيب السياسي الأمريكي في معرض تحليله، هي توازي تطور تفاعلات جهاد وماك ورلد في زمكان واحد. ففرنسا، على سبيل المثال لا الحصر، ما فتئت تدافع عن خصوصياتها الثقافية، وعن لغتها، وعن صناعتها السينمائية في مواجهة

---

[1] ويضيف بعيدا أن حتى الدول الأكثر تطورا ، والتي تجاوزت حد الاكتفاء لا تزعم أنها تتمتع بسيادة كاملة . فالايكولوجيا مثلا كلمة أقصت كل الحدود البشرية. إذ في مواجهة البقع السوداء والأمطار الحمضية وندرة الموارد السمكية وتلوث المياه الباطنية وانعكاسات غازات الأوزون والتسربات الإشعاعية والنفايات السامة والأمراض الجنسية المعدية لم تبق للحدود الوطنية أية معنى. فليست للجراثيم جوازات سفر. وعلى هذا المستوى أصبح العالم منطقة واسعة للتبادل الحر.

الأفلام الأمريكية. لكن ذلك لم يمنع حكومتها من استعمال الفرنجليزية ولا من توشيح صدر الممثل الأمريكي سيلفستلر ستالون بوسام فارس الفن والآداب، أو حتى من تمويل معرض أورورديزني بالقرب من باريس.

ومهما يكن من أمر، يؤكد باربر، فإن التعدد الثقافي الذي ما فتئت تنادي به فرنسا، قد سما بالعزة الفرنسية إلى مقام الجهاد ضد إكراهات ماك ورلد، عزة ترفض أن ترى العالم مستعمرا بثقافة تجارية واحدة ووحيدة.

لكـــن هل يعني هذا الموقف الفرنسي أو الإيراني أو غيره أن جهاد يوجد على قـــدم المســـاواة مع ماك ورلد؟ قد نغمط قوة الأسواق العالمية الجديدة إذا ما اعتقدنا ذلك، يرد باربر في تحفظ. فـــ"حزب الله" ليس في مستوى الوقوف ضد قيام المحلات الـــتجارية الكـــبرى، وتماثيل ماركس وأنجلز في برلين أصبحت محاطة بمطاعم أجنبية وفنادق دولية وإشهارات مضيئة لكوكاكولا وكولد ستار... لدينا آلهة جديدة يقول باربر، ولكن هل تمنحنا حرية أكثر؟

إن أورورديزني و ماك ورلد والأوّيب وشبكات الأخبار الدولية س.ن.ن أو ب.ب.س وباقي الشركات المتعددة الجنسية، يعني هذه الآلهة الجديدة، مؤسسات لا هوية وطنية لها ولا تمثل أو تحترم الأوطان كإطار للتنظيم ومصدر للقانون.

إن مـــاك ورلـــد يرمي إلى إقرار ما يمكن أن نسميه، حسب بنجمان باربر، بالتوتاليـــتارية الاقتصادية، تؤسس فيه الأسواق هيمنتها على جميع القطاعات، مقدمة تـــبريرات عديدة لمفهوم الحرية التي يمكن أن يحصل عليها المستهلك في اختياراته. وإن كانـــت رأسمالية الدولة في الماضي قد ساهمت في التأسيس للديمقراطيات فإن الرأسمالية العالمية لماك ورلد اليوم قد تسعى في ضياعها وتبديدها.

إن أيديولوجية الاختيار توهم المستهلك بأنه حر في اختياراته. ألا تقضي حرية الإنســـان الاختلاف والتعدد؟ طبعا. ولكن أمام عشرات الأنواع من معجون الأسنان والعديـــد من أصناف السيارات لا يمكن للمستهلك أن يختار بأن لا يختار، خاصة لما تكـــون الصـــورة والصوت، أو هوليود كما يسميها باربر، في خدمة ماك ورلد. ولا

يختلف اثنان في أن الصورة والصوت أو استثمار علوم الاتصال في قراءة الذوق الاجتماعي وصياغة إشهار تجاري بارع قد أثبت نجاعته في زرع فكرة الحلم وحمل المستهلك على الاعتقاد بأن اختياره اختيار رجل ناجح، شاب قوي وذكي. فالمنافسة في الرأسمالية الحالية لا تقوم على المنتوج في حد ذاته وإنما تقوم على صورة تقديم المنتوج.

أنا لا أحن إلى أو أحلم بعودة عصر ذهبي غامر، يكتب بانجمان باربر، ولست نساجا معاديا للتقدم التقني وما يسمح به من تطور (...) وإن كنت أشك في مصداقية (استقلالية) اختيارات المستهلك، فليس لانعدام الثقة في الرجل الديمقراطي. ولكن أحتاط من القدرات الهائلة للآلات الذكية التي أنشأها صانعو برامج ماك ورلد أمثال مايكل إيسنر وبيل كايتس وستفان سبلبيرغ وآخرون يراقبون ملكة الصورة والإعلام والأفكار التي تشكل عصب الحرب للغزو في عصر ما بعد الحداثة.

وعصر ما بعد الحداثة هذا، إذا أمعنا النظر، ألقيناه منتوج ثقافة شعبية، مرجعيته أمريكية، وشكله أسلوب ومنهج، وحسناته صور وماديات. تحولت فيه الثقافة إلى بضاعة والهندام إلى أيديولوجية، شعاراته الهارلي وب.م.دابليو التي كانت في السابق وسيلة للنقل وأصبحت في الحاضر رمزا لسيرة معينة في الحياة. الموسيقى والمسرح والكتب ودور الثقافة وقاعات المؤتمرات، حسب باربر، كنائس جديدة لحضارة تجارية جديدة حيث غدت المراكز التجارية ساحات عامة، الكل أعد فيها لنشر صورة تخلق إحساسا مشتركا على مستوى عالمي تشخصه نجوم الإعلام والتواصل والأغنية والماركات برموزها وشعاراتها الإشهارية.

ففي مساك دونالدز وكوكا كولا وم.ت.ف ونايك وس.ن.ن وميكروسوفت ومارلبورو نيرة أمريكية، لكنها ذات إشعاع عالمي. وفي العالم كثيرون من يقدر هذا الإشعاع وانفتاح المجتمع الأمريكي وحريته، لكنهم يخشون عنفه وينفرون من بشاعته وماديته. وما يزال الأمريكان، سنوات بعد 11 شتنبر، يتساءلون عن أسباب

هذا النفور. جورج والكر بوش الرئيس الأمريكي الذي جدد ولايته للمرة الثانية يعلق دواعيه على مشجب محور الشر والإرهابيين الذين يكرهون الديمقراطية الأمريكية.

لكـــن باربر يرد ويقول إن الوهم الأمريكي يكمن في الاعتقاد بأن الولايات المتحدة الأمريكية قادرة على حل مشاكلها لوحدها. وهذا خطأ، لأن الطريقة الوحيدة التي يمكن للولايات المتحدة أن تستعمل قوتها الضاربة هي اقتسامها مع الآخر... فنحن ندافـــع عـــن ســـيادتنا باقتسامها مع الآخر. فهل ستجد أمريكا الزعماء والوطنيين والأيديولوجيا لتفعيل هذا العقد، أم أنها ستسقط في حماقة فردانية متطرفة وفوضوية؟

لقد أعطت أحداث 11 شتنبر لأمريكا -إمبراطورية الخوف، كما ينعتها باربر في كـــتابه الأخير[1]- إمكانيتين متعارضتين. إما أن تعترف بأنها تنتمي إلى عالم يقوم على الاعتماد المتبادل، والذي لا يمكن لها أن تراقبه إلا عن طريق التعاون والشراكة، أو أن تنطوي على نفسها وتلعب دور الدركي بإرسال جنودها لقتل الأشرار[2]، وإقامة جـــدار فاصل حول أمريكا. "من لا يوجد في صفنا هو بالطبع ضدنا"، صرح الرئيس بوش غداة الأحداث.

والواقع أن حقيقة العالم الآني غامضة، يكتب باربر في مقدمة كتابه بنبرة من الحـــذر والتشاؤم، والكل يقوم حسب ما نختار أن نراه. ما زلنا لم نصل بعد إلى نهاية الـــتاريخ، ولا حـــتى إلى جنان التقنيات والأرض الموعودة حسب المستقبليين. انهارت شـــيوعية الدولـــة، ولم نتوصـــل مع ذلك إلى بر ديمقراطي. ما تزال حروب الإبادة مشتعلة. ويستمر الماضي يؤرق مضجعنا.

وبنبرة تطبعها مسحة من التفاؤل هذه المرة، يختم مقدمته ويقول: حقا إن قوى جهاد مجلجلة وعدمية أكثر مما هي عليه قوى ماك ورلد. فهي على المدى القريب تهدد بالهيمنة وتطبع عهدنا بتراجيديا محلية وإبادة جهوية... تقف في وجه الاندماج العالمي.

---

1 Benjamin Barber, *L'Empire de la peur. Terrorisme, guerre, démocratie*. Paris. Fayard, p. 281.

2 Pour les américains qui s'engagent concrètement dans la guerre sainte (...). Pour eux la constitution américaine se résume à son deuxième amendement (le droit de porter "les armes)". B.Barber. *Djihad versus Mc World. op. cit*, p. 215.

ولكن، على المدى البعيد، ستنتصر قوى ماك ورلد التي تحمل في طياتها دينامية الحضارة الغربية.

أكـــيد أن الحروب الصغيرة لجهاد ستستمر في احتلال الصفحات الأولى من الجـــرائد خـــلال القـــرن المقبل، ساخرة من أطروحة نهاية التاريخ. ولكن الانسجام والتنافســـية التي يخلقها ماك ورلد لها حظوظ أكبر لإعداد ظروف سلام عام وشامل يدعـــم انتصار التبادل التجاري واقتصاد السوق، ويعطي لأولئك الذين يراقبون ملكة الإعـــلام والصـــورة والأفكار مفاتيح توجيه دفة العالم ... حتى وإن لم يكن هذا هو الهدف الذي رسموه لمشاريعهم.